ولاية المدينة

بداية الفطنة

تأثر الوليد بن عبدالملك بمحبة أبيه لعمر بن عبد العزيز ، وتأثر بما صار لعمر من مكانة في قضاء حاجات الناس وحاجات بني أمية خاصة ، وكانت صارت له به آصرة المصاهرة بزواج عمر من أخته فاطمة ، فلما استخلف الوليد وبلغ عمر الخامسة والعشرين من عمره ولاه امرة المدينة ، وولاه بعد هشام بن اسماعيل المخزومي الذي كان آذى الناس وابتلاهم ، وخصّ اهل البيت بالبلاء وأشد الايذاء . فولاه الوليد ليهدىء به النفوس الثائرة ويرضي القلوب النافرة .

فلما كتب الوليد لعمر بولايته على المدينة أبطأ عن الخروج اليها ، لأنه كان يعلم ما أصاب أهلها من هشام بن اسماعيل ، فأرسل اليه الوليد يسأله : ما باله لا يخرج الى عمله ؟ فرجع اليه الرسول يقول : زعم عمر أن له اليك ثلاث حوائج . فقال الوليد : عجّله عليّ . فلما جاء قال : إن أباك ولى من كان قبلي ، فأنا احب ألا تأخذني بعمل اهل العدوان والظلم . فلم ير الوليد إلا ان يقبل

لأنه يريد رضا اهل المدينة ، فقال لعمر : اعمل بالحق وإن لم ترفع الينا إلا درهماً واحداً [٦٦]

وقدم عمر المدينة في شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين ، ولم ينس ان يقدم اليها في موكب من زينته فقدمها في موكب عظيم يتألف من ثلاثين بعيراً . فلما دخل المدينة على حين فرحة من أهلها دخل دار جده مروان حيث كانت من اكبر دورها واعزها ، ثم أقبل الناس فسلموا عليه بالامارة ورحبوا به ترحيباً عظيما [٦٧]

ودخل عمر المدينة كما كان بها غلاماً ، تعصف ريحه ويسترسل شعره . وكما كان من قبل مسبل الازار ، يجرّ ذيله متبختراً في مشيته العمرية ، لم يترك مما كان فيه شيئاً [٦٨]

مشورة الفقهاء

ولكن عمر وقد أخذ على الوليد ألا يُسأل عن عمل اهل الظلم والجور — رأى ان يجرب خطة جديدة لم تتّح له في خناصرة ، او لعله جرّبها هناك في نطاق ضيّق ، فرأى ان يبدأ عمله بالشورى لئلا تقع عليه مسئولية أمر ليس لأهل المدينة رأي فيه ولا اقبال عليه .

وكانت المدينة تعجّ بأهل العلم والزهد والوعظ ، وقد اشتهر من بينهم الفقهاء السبعة الذين عاشوا بها متعاصرين ،

---

(٦٦) ابن الجوزي ص ٣٢

(٦٧) الطبري ج ٥ ص ٢١٦

(٦٨) ابن عبدالحكم ص ٢٠

وعنهم انتشر العلم والفتيا في الدين بعـــد الصحابة ، وكلهم من سادات الناس وأعلام التابعين .

ولم يكن هؤلاء الفقهاء السبعة صاغة كلام لا يؤثر كلامهم وإن رقّ وراق ولا ينفـع وعظهم مهما عـلا وبلغ . إنهم لم يكونوا ملبّسين ، لأن التلبيس وإظهار المموّه وشغل الناس عما في أيديهم لتتم الرياسة وتُقضَى آراب الدنيا ـ لم يكن كل ذلك من صنعتهم ، ولكنهم كانوا يخلصون السرّ كما يخلصون العلانية ، وكانت أعمالهم توافق علومهم ، وأقوالهم من نياتهم ، فصاروا أئمـة يُقتدى بهم ويوثق بكلامهم وتُصدَّق أحكامهم .

اثنان منهم يتسابقان في الفضل ويتفاضلان في السبق هما سعيد ابن المسيّب بن حزن وسليمان بن يسار ، وكلاهما من الطبقة الأولى من التابعين . أما سعيد فلم يكن قد بقي من هو أعـــلم بقضاء رسول الله وقضاء صاحبيه منه [٦٩] . وأما سليمان بن يسار مولى ميمونة أم المؤمنين فكان عالماً فهماً وعابداً ورعاً وثقة حجة . وكان سليمان عندهم أفهم من سعيد ، وقد روى عن خلق كثير منهم ابن عباس وأبو هريرة وأم سلمة ، وروى عنه الزهري وجماعـــة من الأكابر ، وكان المستفتي إذا أتى سعيد بن المسيب فسأله عن شيء قال له سعيد : اذهب إلى سليمان بن يسار ، فإنـــه أعلم من بقي اليوم ! وكان سليمان أعلم أهل المدينة جميعاً بأحكام الطلاق [٧٠]

وأما الخمسة الباقون فكانوا جميعاً من الطبقة الثانية من التابعين ،

---

(٦٩) صفة الصفوة ج ٢ ص ٤٤

(٧٠) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٣٦

وهم : عبيدالله بن عبدالله بن عتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة القرشيّ المخزومي ، وخارجة بن زيد ابن ثابت الأنصاريّ ، ثم القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وابن خالته سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب .

وابنُ عتبة راهب قريش عالم ناسك ، لقي خلقاً كثيراً من الصحابة، وسمع عن ابن عباس وأبي هريرة وأم المؤمنين عائشة، ثم روى عنه الزهريّ وغيره . وقد قال الزهري فيه حين لقيه ليأخذ منه : سمعت من العلم شيئاً كثيراً فظننت أني قد اكتفيت حتى لقيت عبيدالله فإذا كأني ليس في يدي شيء ! [٧١]

وأبو بكر بن عبد الرحمن عالم كثير الصلاة والعبادة ، سمّي أيضاً راهب قريش أو راهب المدينة ، روى عن أبي مسعود الأنصاري وأبي هريرة وعائشة وأم سلمة [٧٢] وغيرهم .

وخارجة بن زيد تابعيّ جليل القدر ، ورث عن أبيه زيد علم الفرائض ، وكان أبوه من أكابر الصحابة وأعلم الناس بالفرائض وقسمة المواريث. وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرَضكم زيد .

أما القاسم وسالم فكانا ابني خالة ، وأمّاهما من بنات يزدجرد ابن كسرى . وكان القاسم أعلم من سالم [٧٣] ، رجلاً مهيباً وقوراً لا يقول إلا ما يعلم، وما كان أحد أعلم بالسنّة منه، وكان عمر بن عبد

---

(٧١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٠٠

(٧٢) صفة الصفوة ج ٢ ص ٥٢

(٧٣) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٢٤

العزيز يقول: لو كان لي من الامر شيء لوليتُ القاسم بن محمد الخلافة[٧٤] أما سالم فكان سيداً عالماً ثقة، روى عن أبيه وغيره، ثم روى عنه الزهري ونافع. وكان سالم زاهداً يلبس الصوف ويعالج بيديه ويعمل ويستغني، وكان حسن الجسم، قال: دخلتُ على الوليد بن عبد الملك فقال: ما أحسن جسمك! فما طعامك؟ قلت: الكعك والزيت، قال: وتشتهيه؟ قلت: أدعه حتى اشتهيه فاذا اشتهيته أكلته. وكان سالم يقول: إياكم ومداومة اللحم فان له ضراوة كضراوة الشراب[٧٥]

وكان سالم في وفرة من الغنى والعفة. دخل هشام بن عبدالملك الكعبة وكان ولياً للعهد فاذا هو بسالم، فقال له: سلني حاجة، فقال له سالم: إني لأستحي من الله أن أسأل في بيت الله غيره. فلما خرجا قال له هشام: الآن قد خرجتَ فسلني حاجتك، فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: بل من حوائج الدنيا، فقال سالم: ما سألتُ من يملكها فكيف أسأل من لا يملكها؟[٧٦]

رأى عمر ان يستشير ستة من هؤلاء الفقهاء ويترك سعيد ابن المسيب لما كان من سنّه وضعفه ولما كان بينه وبين الوليد وبني أمية، وضمّ اليهم أربعة من سادات العبّاد والفقهاء، هم عروة بن

---

(٧٤) صفة الصفوة ج ٢ ص ٤٩

(٧٥) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٩٤

(٧٦) صفة الصفوة ج ٢ ص ٥١

الزبير ، وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة ، وعبدالله بن عبدالله بن عمر ، وعبدالله بن عامر بن ربيعة ، فصاروا عشرة من الفقهاء الاعلام .

ولم يكن في أرض الله أعبد من هؤلاء ، ولا أخشى ولا اعلم ، الا من لم يقدر على الرجوع الى عمر اذا دعاه من سنٍّ او ضعف ، والا علي بن الحسين زين العابدين . فدعا عمر اليه اولئك العشرة ليستشيرهم ويقضي بما يرون .

وجاء الفقهاء فدخلوا عليه فجلسوا ، فأخبرهم بما رأى ، وأنه انما دعاهم لأمر يؤجرون عليه ، ويكونون أعواناً على الحق ، وأخبرهم أنه لا يريد أن يقطع أمراً الا برأيهم جميعاً ، او برأي من يحضر منهم ، وطلب اليهم أن يراقبوا المظالم ويرفعوها اليه ، فخرجوا من عنده وهم يجزّونه خيراً [٧٧]

ميول عمر

دعا عمر هؤلاء الفقهاء الصلحاء ليعاونوه ويشيروا عليه ، ولكنه لم يكن قد مال كل الميل الى الطريق التي يرسمون والرأي الذي يرون . وقد بدا أن عمر لم يكن يقوى على أن يسمع منهم أو من غيرهم العذل والملامة ان عذلوا او لاموا ، وبدا أن عمر دعاهم وهو متأثر بهم حين كان غلاماً يتأدب بالمدينة ويتعلم ، فكان المثال الحسن عنده ضخماً ، والقدوة الصالحة في عينه جليلة ذات تقديس ، فكان يرى في ابن عتبة مثال الراعي الشفيق على ابله ، يقسو عليها ليجنبها مواقع الهلكة ، وكان يرى القاسم أحق الناس بالخلافة ،

(٧٧) الطبري ج ٥ ص ٢١٦

ويرى زين العابدين سيد الناس . وللناشئين الشادين والآخذين بطرف من الحياه نظرة الى القدوة والمثال غير ما ينظرون اليها اذا شبوا وكبروا وجربوا ، وقد تتبدل الحال اذا صار المقتدي الشادي أميراً وحاكماً على الناس . ومع ان عمر لم يغير رأيه في هؤلاء الفقهاء ، وأقبل عليهم يستشيرهم ، فان التاريخ صمت دون ان يقص لهؤلاء مع عمر اخباراً ذات بال .

وإنه بينا مال عمر اليهم هذه الميلة وأرادهم المشورة مال عنهم ميلة اخرى ، وانحرف عن طريقتهم في خاصة نفسه بعض الانحراف ، وظل يروح بين هذه وهذه لم يسن له طريقاً خالصة يلزمها ، وراح يجمع مع العلم رواية الشعر ، ويجمع الى الفقه سماع الغزل والغناء وصناعة الالحان .

روى عن الأخطل إنشاده بين يدي عبد الملك [78] ، وروى عن ابن الحطيم . وأذن للشعراء والرجّاز أن يقصدوه ، فأنشده دُكين الراجز وأعطاه عمر خمس عشرة ناقة من كرائم الابل [79] . وجاءه نصيب وهو بالمسجد وأراد ان ينشده من مراثيه في أبيه فقال له عمر : لا تقل فتحزنني ، وطلب اليه ان ينشده غزلاً ، فأنشده فأعطاه . ثم دخل عليه حُمَيد الأمجي المسمّى « أخا الخمر » لكثرة شربه لها ووصفه اياها فلم يردّه وسمع لما ينشده [80]

وسمع عمر للاصوات وطرب لها ، وتمادى فصفق بيديه ورجليه ،

(٧٨) الموشح ص ١٣٧

(٧٩) الأغاني ج ٨ ص ١٤٩

(٨٠) معجم البلدان ج ١ ص ٣٣٠

ثم تمادى فغنى ووضع الألحان للغناء ، ولكنه لم يجعل غناءه ليصل به الى خسائس الامور ، وانما كان إظهار أثر من آثار علمه لحسّه ، حتى يتبيَّن النّسب التي تتألف في نفسه ويظهر حكمتها ، وكذلك كان تماديه جميلًا مستحسناً وإن كان فيه بعض الخروج عن العادة والأِلْف عند صالحي المؤمنين .

وغنى عمر بصوت نديّ حسن التطريب حتى انــــه كان يلهي بحسنه من انقطع في المسجد الى الصلاة . وقد روَوْا أنه دخـــل المسجد ذات ليلة فصلى قريباً من سعيد بن المسيب ، ورفع صوته بالتلاوة ، فقال سعيد لغلامه « بُرْد » : يا بُرْد ، نحّ عنا هـــذا القارىء فقد آذانا بصلاته . وتمادى عمر في صلاته وتلاوتــه ، فعاد سعيد لغلامه فقال له : ويحك يا برد ! ألم أقل لك نحّ هذا القارىء عنا ؟ فهاب الغلام أن يقول للامير شيئاً فرفع صوته قائلًا لسعيد: ليس المسجد لنا ! فسمع عمر فأدرك فأخذ نعليه وتنحّى الى ناحية من المسجد وصلى [٨١]

والتلاوة الجيدة كان عمر يستحسنها ، وقــــد سمع لمسلم بن جُنْدَب ، وكان قاصّ المسجد وقارئه ، سمعه يقرأ القرآن ويجيد ترتيله فأعجبه حسنه فقال: من سره أن يسمع القرآن غضاً فليسمع قراءة مسلم بن جندب [٨٢] .

ثم كانت في عمر بين الميلتين ميلة ثالثة إلى الفكاهــة والمزاح ، غير أنه كان مقتصداً فيهما لا يخرج بهما عن القصد وسيما الوقار .

---

(٨١) ابن عبد الحكم ص ٢٢

(٨٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٤٦ــ تاريخ آداب العرب ج ١ص٣٩٦

غضبة على فقيه

وكان ميل عمر لمشورة الفقهاء خيراً له ، فلم يَدَعوه يسبح في ميلاته كيف يشاء ، بل أخذوا يلومونه كلٌّ من جانبه بقدر ما يرى لعله يُقصِر أو يسلك طريقاً سدداً . وقد حدث أن كان ذات يوم – وهو في ولايته – يمر بالمدينة ساحباً ثوبه جاراً ذيله ، فناداه محمد بن كعب القرظيّ قائلًا : يا عمر ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما جاوز الكعبين فهو في النار ! » فالتفت إليه عمر مغضباً وأغلظ عليه في الرد فقال له: اتق الله يا بن كعب! لا تكن ذبالة تضيء للناس وتحرق نفسها . ثم افترقا [٨٣]

كان عمر يرّ متبختراً في مشيته العمرية في ثوب طويل مجرور الذيل ، ولم يكن عمر قد أثقله التكلف أو أحب أن ينفرد من بين الناس بما يخالفهم لينبّه على موضعه ويشير إلى نفسه ، ولكنها كانت عادة الصغر ، فلم يُجَشِّم نفسه تكلفاً أو يحمّلها مئونة غليظة ، فكره لذلك ما قاله محمّد بن كعب .

وأما القرظيّ فكان يعرف عمر حق المعرفة ، وإنما أراد له المشاركة في الخير ، وحرص على أن يكون في مظهر أهل الفضل ، كما وضعت لهم السنة وفرضت الشريعة ، ولعل عمر أدرك أن صاحبه أراد خيراً وقال صدقاً ، ولكنه أسرع فاحتد فقال .

وهكذا بدا أن عمر ضاق بابن كعب حين نهاه أن يجر ذيله . وغاية الظن أن عمر لم يكن يريد من الفقهاء إلا أن يرفعوا إليه مظالم الناس ويشيروا عليه حين يستشير ، أما التعرض له في خاصة

(٨٣) ابن عبد الحكم ص ١٤٦

نفسه فما كان يريده أو يصطبر عليه .

الأمير الأمير

وما فتىء الناس يسمون عمر « بالأمير » كلما تحـــدثوا . ولم يكن أحد ممن يفد عليه أو يجالسه أو يخبر عنه إلا وهو قائـل : « الأمير الأمير » حتى كاد اسم عمر يختفي من سوق الحديث ويحل مكانه اللقب . ولقد ضاقت نفس مزاحم بن أبي مزاحم مولى عمر بما يحدث من هذا الأمر ، حين رأى عمر يغالي لنفسه والنـــاس يغالون له ، فانتظر ريثما تحين الفرصة . ثم حدث أن حانت مسرعةً إذ حبس عمر رجلًا ، وجاوز في حبسه القدر الذي يجب عليـه ، فكلمه مزاحم في اطلاقه ، فقال له عمر : ما أنا بمخرجه حتى أبلـغ في الحيطة عليه بما هو اكثر مما مرّ ، فوجد مزاحم الفرصة قـــد سنحت ورأى الأمر قد جاوز حده فقـال له مغضباً : يا عمر بن عبدالعزيز ، إني أحذرك ليلةً تمخض بالقيامة ، وفي صبيحتها تقـوم الساعة ! يا عمر ، ولقد كدت أنسى اسمك مما أسمع قال الأمـير قال الأمير !

قال عمر بن عبدالعزيز : ان أول من أيقظني لهذا الشأن مزاحم ، فوالله ما هو الا أن قال ذلك فكأنما كشف عن وجهي غطاءً ! [٨٤]

مسجد المدينة

وجاء أمر الوليد الى عمر بأن يوسع مسجد المدينة ، وأمره ان

---

(٨٤) ابن الجوزي ص ١٠٠

يُدخل حُجُرات الزوجات بالمسجد ، وقد كان أبوه عبد الملك حاول ذلك ثم كفَّ عنه لأن اهل المدينة حين علموا بنيته فزعوا وضجوا ، ثم رأى الوليد أن الفرصة قد سنحت وعمر بن عبدالعزيز على المدينة لمكانه من أخواله آل الخطاب ومكان آل الخطاب من اهل المدينة ، ثم ان عمر يجمع الفقهاء حوله ، وكل أولئك كفيل بأن يرضي من لم يكن راضياً متى همَّ عمر به ، فصدع عمر بأمر الوليد [٨٥]

وبيوت النبي كانت تسعة ، بعضها من جريد مطيَّن ، وبعضها من حجارة ضخمة قد رُضِمَ بعضُها فوق بعض [٨٦] ، وسقوفها من جريد وقد دنت بحيث ينال الغلام الناشيء السقف بيده . وكان لكل بيت حجرة قد جعلت من أكسية من شعر مربوطة في خشب السرو . فلما توفي أزواج النبي وأراد عبدالملك ان يخلط الحجرات بالمسجد ضجَّ اهل المدينة بالبكاء كيوم مات النبي ، فأمسك عبد الملك ورجع عما رأى [٨٧]

ولما جاء أمر الوليد جمع عمر اليه وجوه الناس والسروات من الفقهاء ، فرأوا ما رآه وما رأى الوليد . وشمر عمر وشمر معاونوه ، وتقدموا معه يدلونه على اعلام المسجد ويقدرونه ويضعون أساسه [٨٨] . وأدخل عمر الحجرات بالمسجد ، واشترى ما بنواحيه ،

---

(٨٥) الطبرى ج ٥ ص ٢٢٢

(٨٦) الرضم عملية في البناء ساذجة لايراعى فيها نحت الأحجار وانتظامها.

(٨٧) مسالك الأبصار ج ١ ص ١٢٦

(٨٨) الطبري ج ٥ ص ٢٢٢

ثم بنى ووسع وزخرف ، وقدّم القبلة ، وجوّف المحراب ، ورفع المنارة ، فكان أول من أحدث تجويف المحاريب في المساجد [89] .

وحين بنى المئذنة ازدادت المآذن انتشاراً من بعده في بلاد المسلمين تشبّهاً بمآذن الشام [90]

وكان أنْ بدأ عمر البناء بعمال من أهل المدينة ، ومدّ يده لمعونته في أول من مدّ مؤدبهُ الفقيه المحدّث ذو المروءة والدين صالح بن كيسان ، وظلوا يدأبون حتى جاءهم المدد من فَعَلة أهل الشام ، ثم جاءت معونة صاحب الروم من الفعلة ومثاقيل الذهب وأحمال الفسيفساء [91]

إصلاحات شتى

ثم كتب الوليد إلى عمر أن يسهّل الثنايا [92] ، وأن يحفر الآبار ، وأن ينشيء الفنادق والخانات على طريق الحاج ويكثر منها على سكة خراسان لتأمين السائرين عليها وتزويدهم بما يريدون من الشراء ، ثم أمره أن ينشيء فوارة بالمدينة ، فعمل عمر ما أمر به ، وعمل الفوارة وأجرى الماء في بيتها ، فبدت ذات منظر رائع وفن معجب أنيق [93]

فلما أتمّ عمر ما أمر بتشييده وتسهيله وحفره وإنشائه جوزي من الوليد بأن جعل عاملاً على مكة وعلى الطائف مع إمرة

(٨٩) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٧ ، ٢١٥

(٩٠) تاريخ العرب المطول ص ٢٣١

(٩١) الطبري ج ٥ ص ٢٢٣

(٩٢) الثنايا جمع ثنية كقضية: العقبة أو طريقها أو الجبل أو الطريقة فيه أواليه.

(٩٣) الطبري ج ٥ ص ٢٢٤

المدينة، ثم عقدت له عام تسعين راية الامارة على كل أنحاء الحجاز[٩٤]

زيارة الوليد

وعنّ للوليد بن عبد الملك أن يحجّ في السنة الحادية والتسعين، فكتب إلى عمر بما أراد، فرحب عمر بما نوى الخليفة وما اعتزم. فلما حان له أن يجيء خرج عمر من المدينة يتلقاه في موكب عظيم، كان فيه من خاصة أهل المدينة عشرون رجلاً من الكبراء. وخرجوا جميعاً حتى بلغوا السويداء إحدى قطائع عمر ومزارعه، وكان موكباً يُلقي حملاً ضخماً على الابل ومتون الخيل.

وأقبل الوليد راكباً لم ينزل حين رآهم، إذ كان من عادة الخلفاء أن ينزل لهم الناس إن كانوا ركبانا، ويقوموا إن كانوا جلوساً[٩٥]، ولكنّ الناس حين رأوا الوليد لم ينزلوا وأرادوا لقاءه ركبانا، فأسرع حاجب الوليد يدنو منهم ثم صرخ فيهم: انزلوا لأمير المؤمنين! فنزلوا.

ثم اشار اليهم الوليد أن يركبوا، فركبوا. ثم دعا بعمر اليه وحده فسايَرَه حتى نزل بذي خشب على مسيرة ليلة واحدة من المدينة[٩٦] ثم أحضر عمر أصحابه فدعاهم الوليد رجلاً رجلاً فسلموا عليه، ودعا بالغداء فتغدوا عنده ذلك اليوم.

ودخل الوليد المدينة فغدا من فوره إلى المسجد ينظر إلى بنائه، وكان قد أخلي له قبل أن يصل إليه، ولبّى الناس جميعاً

---

(٩٤) الطبري ج ٥ ص ٢٣٠

(٩٥) العقد الفريد ج ٤ ص ٩٢

(٩٦) معجم البلدان ج ٣ ص ٤٤٠

أمر عمر في مغادرة المسجد الا سعيد بن المسيب ،فإنه جلس عند القبلة كعادته لا يبالي ، ولم يجرؤ أحد من الحراس أن يخرجه فقد مضى عليه خمسون عاماً لم تفته في يوم منها التكبيرة الأولى عند كل صلاة . وجلس سعيد في مكانه وليس عليه من الثياب الا ريطتان ما تساويان غير خمسة دراهم ، فجعلوا يتوسلون اليه أن يقوم من مقامه حتى يجيء الوليد ويخرج ، فقال سعيد : لا أقوم حتى يأتي الوقت الذي أقوم فيه ! وكان بين الوليد وبين سعيد حساب .

سعيد بن المسيب

في سنة خمس وثمانين توفي عبد العزيز بن مروان بعد أن ولي مصر عشرين سنة ، وكانت له ولاية العهد من بعد أخيه عبد الملك، عقد لهما أبوهما مروان بذلك ، فلما مات عبد العزيز بن مروان عقد عبد الملك من بعده لولديه : الوليد ثم سليمان ٩٧ ، وبعث الى هشام بن اسماعيل المخزومي عامله على المدينة أن يدعو الناس لبيعة ولديه ، فبايع الناس غير سعيد بن المسيب فانه أبى وقال : لا أبايع وعبدالملك حيّ !

وسعيد بن المسيّب بن حَزْن أبو محمد المخزوميّ المدنيّ كان حينئذ أحد أعلام الدنيا ، وسيد التابعين ، وواحداً من الفقهاء السبعة ، وقد رأى الدنيا تكفَى مئونتها بأربعمائة دينار ، فلما امتلكها اتجر بها في الزيت وجعل يرتزق منها دون ان يقتضي من علمه مالاً ودون ان يمدّ يده للعطاء . ولما مات العبادلة صار الفقه في جميع البلدان الى الموالي إلا المدينة فكان فقيهها سعيد . وقد

(٩٧) شذرات الذهب ج ١ ص ٩٥

جمع بين العلم والعمل حديثاً وتفسيراً وفقهاً وورعاً وعبادة، وحج اربعين مرة الى بيت الله الحرام .

ولكن ذلك كله لم يكن ليحمي سعيد بن المسيب من غضب عبدالملك وسخط هشام بن اسماعيل حين امتنع عن المبايعة . وكان الشتم والجلد والتشهير والقتل عقوبات مفروضة على الفقهاء في هذا العصر : عصر عبدالملك خاصة ، ولم يكن هناك مَنْ يغتفر له الخطأ لمكانته من الجاه أو العلم أو التعبد إذا لم يرض الخليفة أو يغضّ الأمير . وقد ابتدع الحجاج للعصاة – في نظره – وسائل الملاحاة والتعذيب والحبس والقتل . وقتَل الحجاج سعيدَ بن جبير بعد أن لاحاه ، وكانت أدنى كلمة مما قال سعيد بن جبير للحجاج تفتت الصخر وتهدّ الجبال . وقد أمر الحجاج بضرب عنقه ووجهه شطر القبلة وبين يدي الصلاة .

وسارت الدولة على هذا النهج . فلما أمر عبدالملك أن يبايع أهل المدينة لوليديه وأبى سعيد بن المسيب – أمر عبدالملك عامله على المدينة هشام بن اسماعيل أن يضرب سعيداً فضربه هشام ستين سوطاً ، وطاف به على الناس وهو في تُبّانٍ من صوف وعليه مَسُوح ، وطاف به حتى إذا بلغ الثَنيّة التي كانوا يقتلون عندها العصاة ردّه حياً ، فحزن سعيد حين ردّوه لأنه ظن أنه مقتول فلم يعارض لبس المسوح والتبان ، ولو كان علم أنه مردود حياً لرفض أن يلبس . فلما بلغ الخبرُ عبدَالملك قال : قبح الله هشاماً : إنه كان ينبغي أن يدعوه الى البيعة ، فان أبى يضرب عنقه او

يكف عنه [٩٨] .

وكذلك جاء الوليد على معرفة بسعيد بن المسيب ، وجاء يحفظ له إباءه لمبايعته له من قبل ، وربما ودّ الوليد أن يرى في المسجد كل الناس غير سعيد ! وودّ عمر بن عبد العزيز لذلك لو تنحّى سعيد عن طريق الخليفة حتى يذهب ! ولكنه لم يستطع اذ كان مضى على سعيد تقليد خمسين عاما وعادتها ، لم يناد للصلاة في فريضة مكتوبة الا وسعيد أسبق الناس الى المسجد قبل الأذان [٩٩] ، فلما قيل لسعيد ليخرج أو يتنحّى عن مكانه عند القبلة أبى وقال : لا أقوم حتى يأتي الوقت الذي أقوم فيه !

ودخل الوليد المسجد فلم يَرَ فيه احدا ، قد أخلي له . ثم حانت منه التفاتة فرأى سعيدا جالسا عند القبلة . وبلغت الحيرة بعمر مبلغها ، وعرف الوليد أنه أبى أن يخرج ، وحاول عمر أن يفوّت الأمر . وكل مكان في المسجد كان يهون حين يجلس فيه سعيد الا القبلة ، فقد كان الوليد مشغوفاً بأن يراها ، لأنها والمئذنة فنّه الذي ابتدعه هو وعمر تشبهاً بآذن الشام .

قال عمر بن عبد العزيز : فجعلتُ أعذل بالوليد في ناحية المسجد لئلا يراه ، فالتفت الوليد الى القبلة فقال : من هذا الشيخ ؟ أهو سعيد ؟ فقلت : نعم . . . ومن حاله كذا وكذا . . . وجعلت أعتذر له وأقول : ولو علم بمكانك لقام فسلّم عليك . . . وهو ضعيف البصر . . . فقال الوليد : قد علمنا حاله ، ونحن نأتيه - وكان

---

(٩٨) الطبري ج ٥ ص ٩٠٢

(٩٩) صفة الصفوة ج٢ ص ٤٤

سعيد قد ضعف بصره – فدار في المسجد ثم جاءه فقال : كيف أنت أيها الشيخ ؟ فوالله ما تحرك سعيد ، فقال : بخير والحمد لله ! فكيف أمير المؤمنين ، وكيف حاله ؟ قال عمر : ثم انصرف الوليد وهو يقول : هذا بقية الناس ! وانا اقول : أجل يا أمير المؤمنين ! [١٠٠]

خطبة الوليد

وابتهج الوليد بما رأى في ذلك اليوم ، أو حاول أن يظهر أنه ابتهج ، فقسم بالمدينة رقيقاً من العجم كثيراً ، وآنية من ذهب وفضة ، وأموالاً . ومضى فوقف على الفوارة التي انشأ عمر ، فنظر الى بيت مائها وتدفقها منه فأعجبته ، فأمر لها بقوام يقومون عليها ، وأمر أن يسقى أهل المسجد منها [١٠١] .

ولكن الوليد ما لبث أن طغى شعوره على مظهره فغطاه وذهب ابتهاجه ، فقد أدرك ما في نفوس أهل المدينة منه ومن أهل بيته فغضب ولم يكظم غيظه ، وانتظر الجمعة وذهب الى المسجد فصلى بالناس ثم خطب فتوعد أهل المدينة ، وزاد فغيّر التقليد وخالف العادة فخطب الجمعة على المنبر قاعداً ! ثم ترك المدينة من قريب .

ولم تكن خطبة الوليد الا نفخاً في وقود ، فانكشف بها الرماد الرقيق عن الجمر فالتهب ، وانقلب أهل المدينة يعلنون

---

(١٠٠) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢٣ – اليعقوبي ج ٣ ص ٢٩ – الطبري ج ٥ ص ٩١

(١٠١) الطبري ج ٥ ص ٢٤

الغضب عليه ويزيدون ، وكان غضب أهل المدينة عليه جديداً على قديم ، أما الجديد فإنه خالف التقليد وقعد وهو يخطب تكبراً وغلظة عليهم ، وقد انزل وجوه المدينة الركبان وجرّهم وراءه حتى تفضل فدعاهم للغداء معه بذي خُشُب ، وقد طرد الناس عن المسجد حتى يكون له وحده ساعة يزوره ، وحبذا اباء سعيد بن المسيب عليه فلم يخرج .

وقد وهب الوليد الرقيق والذهب والأموال لسادات الناس ليترضاهم ، أما الفقراء فلم يأخذوا شيئاً لأنه لم يبال بهم ، واشتعل لهب الغضب في المدينة ففتحت أبوابها لمن يطردهم الحجاج أو يفرون منه ، فرداً بعد فرد ، ووفداً بعد وفد ، وتلقاهم أهلها يؤثرونهم على أنفسهم كعادتهم ، واندفع عمر ابن عبدالعزيز في تيار النفوس وغضب معها ، فتغاضى عن الوافدين ، ثم مدّ يده اليهم بالاحسان ثم بكى لهم وانحنى عليهم ، وكتب الى الوليد يخبره بظلم الحجاج وسفكه للدماء ، وخوّفه عواقب ما يفعله بأهل العراق [١٠٢]

وجاء الموسم الثاني في السنة الثانية والتسعين ، فعقد الوليد لواء الحجّ للحجاج بن يوسف ، وان يمرّ بالمدينة وهو يغدو للحج . وكتب الى عمر بذلك ، وعرف أهل المدينة فهاجوا ، فكتب عمر الى الخليفة يستعفيه ان يمرّ الحجاج به ، فان النفوس تغلي عليه . وخاف الوليد طغيان الأمر فأمر الحجاجَ ان يجاوز المدينة في

---

(١٠٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢٦ .

طريقه ويسلك الى مكة من طريق أخرى [١٠٣]

وكذلك نفّذ الوليد نصفَ الأمر الذي أراده فانه لم يمنع الحجاج جملة من إمرة الحج ولكنه منعه ان يمرّ بالمدينة ، ومن ثم أصبح في نفسه شيء من عمر أو ثبت هـذا الشيء الذي كان في نفسه منه ، وقد تلجلج به حين زار المدينة في العام السابق ورأى غضب اهل المدينة عليه وعصيان سعيد بن المسيب واعتذار عمر له ، فلما كتب له عمر بما كتب وثق بما تلجلج في نفسه من عمـر ، وانتظر له !

وانكشف الحجاج على ما كتب عمر للوليد فاضطغنه عليه ، فجعل يشمّ انفاس الحجاز ويقبض صدره لها . فلما رجع كتب للوليد بما اضطغن وانقبض ، وجعل يشكو عمر ويدسّ له ويحرّض عليه ويقول له : إنّ كثيراً من مرّاق اهل العراق قد جَلَوا عنه ولجأوا الى المدينة ومكة ، وان ذلك وَهن وضعف ! وما زال الحجاج بالوليد حتى صدّقه في عمر وأذعن له ، وأرسل اليه يستشيره فيمن يوليه الحجاز اذا عزل عنه عمر بن عبد العزيز .

مفترق الطريق

ولم يفطن عمر للامر كله وانما أحسّ بشيء في نفس الوليد ، فرأى أن يرضيه ليتركه الوليد يمضي على خطته في الحجاز ، في ظلال هذا الرضا المكسوب . وأخذ الوليد يجرب عمر ليَرَى أينفّذ كل أمره ويرضيه؟ فاندفع عمر ينفّذ له كل امره : أرسل اليه الوليد ان يضرب على المدينة بعثاً فصدع عمـر بالأمر وأخرج

(١٠٣) ابن عبد الحكم ص ٢٤

منها ألفيْ رجل للقتال . ثم كتب الوليد الى عمر أن يضرب رجلاً مائة سوط فصدع عمر بالأمر وضرب الرجل ولم يَرْعَ فيه حقاً ، وكان له صاحباً وكان اهله عليه كرماء .

وأصيب الرجل المضروب او أصيب عمر بحظ سيء ، فقد كانت في نفس عمر ضغينة عليه ، ولكنه أخمد نارها حيناً ، لأن الرجل حين كان أغضب عمر من ذي قبل لم يتعدّه الى احد آخر . ولكن الرجل اخذ يوغل فيما يُغضب ، وتعدّى فأغضب الخليفة وأغضب بني أمية جميعاً . وجاء امر الخليفة بضربه حين اشتعل أوار الخصومة بين عمر وبين الحجاج . وأحسّ عمر ان الهوة تزداد عمقاً واتساعاً بينه وبين الوليد ، فلم ير عمر بداً من ضربه ليطفىء ضغينته عليه وليهوّن من جفاء الخليفة ويكذّب رأي الحجاج فيه . وهكذا صار الأمر كله الى الخطأ والحدة وسوء الحظ ، وضرب عمرُ الرجل وصبّ عليه ماء بارداً وجسده يلتهب بالحمّى فكزّ الرجل فمات .

يومَ كتب الوليد الى عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد وادخال الحجرات فيه ثم بنائه وتوسيعه ، وصدَعَ عمر بأمر الخليفة فبدأ بهدم الحجرات ـ حزن أهل المدينة حزناً شديداً . ومع أن عمر اصطحب معه السروات من الفقهاء فإن أهل المدينة لم يغتفروا لعمر أن يمحو ذكريات الزوجات وبيوت النبي على عجل ، ولكنهم سكتوا . وجاء خُبَيْب بن عبدالله بن الزبير الى عمر فقال له : نشدتك الله يا عمر ان تذهب بآية من كتاب الله تقول « ان الذين

ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون . » [١٠٤]

وقلوب اهل المدينة كانت تخفق مع خبيب، فإنه مع ما كانت عليه حجرات الأمهات من ضعف وفقر ، كانت عزيزة على النفوس ان تزول ، وقد رَجَوا ان تظل قائمة لا تمس . ويُغْفَر لهم ما احبوا ، لأنهم اهل زمانها. ولو تركت الحجرات حتى يبعد الزمن وتُنسى الذكريات المواثل — ما كان على الولاة الذين يهدمونها من لوم ، ولم يتشبث الناس !

ولكنّ الناس حزنوا ، وكان خبيب بن عبد الله اشد الناس حزنا واكثرهم جرأة واقداماً ، فسار الى تعنيف الأمير ، ولم يقعده ان الامير ذو حدة ، ثم صار بقوله الى التهكم به لا العظة له كما فعل القرظيّ من قبل، ولم يخفه ان عمر كان اعرف الناس بوجوه الكلام والقدرة عليه .

ثم لم يكن في قدرة عمر ان يحتمل اللوم والتهكم ، فحين طلب خبيب الى عمر ان يذهب بآية الحجرات من كتاب الله كان مسرفاً على عمر ، اذ ضمُّ الحجرات الى المسجد افضل لهنّ وابقى، ولكن عمر تلقى تهكم خبيب به بوجمة واصطبارة حتى تحين فرصة للعقاب .

ثم حان لعمر حين اختلط الامر بينه وبين الحجاج ، وبينه وبين الوليد — حان له ان يعاقب خبيباً ، فضربه مائة سوط كما امر الوليد .

وكان خبيب اسنّ ولد عبدالله بن الزبير ، وكان قد لقي

---

(١٠٤) اليعقوبي ج ٣ ص ٢٩

العلماء وقرأ الكتب ، وقالوا انه تعلم علماً كثيراً غريباً لم يكونوا يعرفون وجهه ولا مذهبه فيه ، يشبه ما كان يدّعي الناس من علم النجوم . وكان خبيب يتكهّن بالشيء فيقع . وكان مع كل ذلك ناسكاً نزر الكلام طويل الأناة عند الصلاة [١٠٥]

ولم يكن عمر بن عبدالعزيز مع استعانته بمشورة الفقهاء حين حكم المدينة ، وحين بنى المسجد ووسّعه — لم يكن عمر يُذكر حين ذلك بكثير عدل ولا زهد [١٠٦] ، بل كان رجلا يعنى بزينته وكان ممتلىء الجسم ريّان . قال يونس بن ابي شعيب : شهدت عمر بن عبد العزيز وهو يطوف بالبيت وان حُجزة ازاره لغائبة في عُكنه [١٠٧] ، فلما طلب اليه خبيب أن يذهب بآية الحجرات غضب عمر وامسك. واستمر خبيب يغلو حتى حدّث عن النبي انه قال: « اذا بلغ بنو ابي العاص ثلاثين رجلًا اتخذوا عباد الله خَوَلا ومال الله دولا » .

وسمع الناس في المدينة قول خبيب فلم يهتموا له ، فعندهم امثاله ، ولكن الخبر طار حتى بلغ سمع الوليد ووطىء فراشه ففزع له ، وخيل للوليد أن الناس قد سمعوه في آفاق الارض فلم يغادره رأيه حتى كتب الى عمر بن عبدالعزيز — وهو مغيظ عليه — أن يضرب خبيباً مائة سوط ، ثم يدفع به من بعد الى السجن ، ولو ترك الوليد أمر خبيب دون ان يفزع له لما صار لحديثه من

(١٠٥) ابن الجوزي ص ٣٤

(١٠٦) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٢

(١٠٧) حجزة الازار معقده، والعكن ما انطوى وثنى من لحم البطن . — صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٧

الشأن ما صار له من بعد ، فإن عقربة خبيب ذاعت ، وذاع معها قوله وحديثه ، وصار للناس تسلية بين الاحاديث .

ولو كان عمر يعرف ما يدور بين الوليد والحجاج ، وما يستشار فيه الحجاج فيمن يتولى الحجاز بعده لما ضرب خبيباً ، ولكنه لم يكن يدري ، فجاء به وضربه مائه فمات خبيب ، ولو راجَعَ عمرُ الخليفةَ ، او رجع الى شروطه عليه حين قَبِل إمرة المدينة ، او احتال فخفف السياط لما مات خبيب ، ولكنّ خيال القطيعة بينه وبين الوليد بسبب الحجاج كان يحوم حوله ، وتهمتهُ بأنه يؤوي اعداء الوليد من العراق أثارت حدته فوقع في أمرٍ لبيس ، فنسي ، واجتهد ان ينفي التهمة فضرب خبيباً ونفذ فيه العقوبة وقسا عليه .

ورأى عمر حين ضربه انه التهب بالحمّى ، ولكنه دعا به وبرّد له ماء في جرة وصبّها عليه امام المسجد في غداة باردة شاتية فكزّ فيها خبيب ويبس وخرّ مغشياً عليه ، ودخل في النزع [١٠٨] ، ثم أمر عمر به فنقل الى دار عمر بن مصعب ببقيع اهله ، ومضى عمر الى دار مروان .

وبينما اهل خبيب جلوس حول جثته جاءهم رجل من خاصة عمر يقال له الماجشون ، يستأذن عليهم — وخبيب مسجّى بثوبه — فقال عبدالله بن عروة : ايذنوا له . فلما دخل قال عبدالله : كأن صاحبك في مرية من موته ؟ اكشفوا له عنه . فكشفوا عنه ، فلما رآه الماجشون ميتاً انصرف الى دار مروان فقرع الباب

(١٠٨) الطبري ج ٥ ص ٢٥٦

ودخل ، فوجد عمر مضطرباً قائماً وقاعداً ، فقال له عمر : ما وراءك ؟ قال : مات الرجل ! فسقط عمر الى الارض فزعاً ، ثم رفع رأسه يسترجع ويندم على ما كان !

عزل عمر

ولم يزل الندم بعمر حتى منعه من عيشه الناعم ، فاستشعر مَسْحاً سبعين ليلة ، وانتابته نوبةٌ من الجمود والذهول ، وطغى حزنه عليه وكاد يقتله . أما آل خبيب فلم يعودوا على عمر فيما فعل وعدّوه قَتَلَه خطأ . واما الناس وخصومه منهم فقد عدوها غلطته الكبرى ، فكان اذا غضب منه رجل ذكرها له فانكسر عمر ، وكان كلما احسن الى اهل خبيب قال الناس : دية خبيب. واما عمر فكان كلما صنع خيراً وبشره اصحابه بالثواب والجنة قال : وكيف بخبيب على الطريق !

فلما كاد عمر يتلف من الجزع ، وعلم القاسم بن محمد بن ابي بكر بجزعه وتلفه ذهب اليه يخفف من حزنه ويمسح من بلواه ، واخذ يردّه الى التوبة ويحسن له من التعزية فكان فيما قال له : أعلمت ان من مضى من سلفنا كانوا يحبّون استقبال المصائب بالتجمّل ، ومواجهةَ النعم بالتذلل ! وكأنما عمر كان يبيت على لهفة من تعزية وشوق الى سلوى ، فنَصَل من ثوبه الحزين وراح من عشية يومه في مقتطعات من حِبرَة اهل اليمن ، ثمراؤها ثمانمائة دينار ، وفارق ما كان يصنع [١٠٩]

وفيما كان يعود الى حاله من الأبهة والزينة جاء كتاب الحجاج

(١٠٩) ابن الجوزي ص ٣٥

الى الوليد يشير عليه برجلين يتوليان إمرة الحجاز بعد عمر ، خالد ابن عبدالله القسريّ على مكـــة ، وعثمان بن حيّان المرّيّ على المدينة ، فاستحسن الوليد مشورة الحجاج ومضى في غلوائـــه فأرسل الى المدينة بعزل عمر ، فعزل ولم ينفعـــه موت خبيب!

عهد جديد

وجاء عثمان بن حيان المري يتهدد اهل المدينة ويقول لهـم : ان عندي يا أهل المدينة خبرة من الخلاف، والله ما انتم بأصحاب قتال ! فكونوا من احلاس بيوتكم ، وعضوا على النواجذ ، فاني قد بعثت في مجالسكم من يسمع فيبلغني عنكم ، وانكم في فضول كلام غيره الزم لكم ، فدعـوا عيب الولاة ، فان الأمر ينقَض شيئاً فشيئاً حتى تكون الفتنة ، وان الفتنة من البـلاء ، والفتن تذهب بالدين وبالمال والولد [١١٠]

ثم التفت عثمان بن حيان الى اهل العراق مؤثراً الهـوى ، ولم يدع احداً منهم تاجراً ولا غير تاجر الا اخرجه من كل بلد حتى صاروا في الجوامع والطرقات، واقسم يقـول : إني والله لا اوتى باحد آوى احداً منهم او اكراه منزلاً إلا هدمت منزله وانزلت به ما هو اهله [١١١]

قال سعيد بن عمرو الانصاري : رايت منادي عثمان بن حيان ينادي عندنا : يا بني امية ، برئت ذمة الله ممن آوى عراقيـــاً ، وكان عندنا رجل من اهل البصرة له فضل ، يقال له ابن سوادة ،

(١١٠) الطبري ج ٥ ص ٢٥٩

(١١١) الطبري ج ٥ ص ٢٥٨

من العبّاد ، فقال : والله ما احبّ ان ادخل عليكم مكروهاً ، وبلّغوني مأمني . قلت : لا خير لك في الخروج ، ان الله يدفع عنا وعنك ! قال : فأدخلته بيتي .

وبلـــغ عثمان بن حيان فبعث احراسا ، فأخرجْتُه الى بيت اخي ، فما قدروا على شيء ، وكان الذي سعى بي عدواً ، فقلت للأمير : اصلح الله الأمير ! يؤتى بالباطل فلا تعاقب عليه ؟ قال : فضرب الذي سعى بي عشرين سوطاً ، واخرجنا العراقيّ فكان يصلي معنا ما يغيب يوماً واحداً ، وحدِب عليه اهل دارنا فقالوا نموت دونك ! فما برح حتى عزل الخبيث .

ولم يكن كلّ مافعله عثمان قولاً ، وانما بعث الحرس والجلاوزة[١١٢] يبحثون عن الناس ويسوقونهم الى السجون ، فاذا ابصروا ومضة رجل عراقي اختطفوه كالبرق ، واذا جاءوا بخبر رجل يؤوي عراقياً دهموه وسجنوه . وكما فعل عثمان بن حيان بالمدينة فعل خالد القسري بمكة ، وبلغت يد الحجاج الحجاز ، وتمنى الناس يوماً من ايام عمر فلم يجدوه .

---

(١١٢) الجلاوزة: الشرطة